

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) يَسْتُلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا (٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرُوزِهَا لَرَبِّهَا لَرْلَبْتُوْا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴿

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ الطامة اسم من أسماء القيامة وهي الساعة، والمقصود بها النفخة الثانية التي يحصل بها البعث؛ بدليل ما بعدها من الآيات. وللساعة أسماء متعددة؛ عدَّ القرطبي : منها ثمانين اسماً، وعدَّ ابن كثير : خمسين اسماً. وليعلم أن الأسماء التي سماها الله تعالى، أو سماها نبيه ﷺ أعلام، وأوصاف، كما أن أسماء الله الحسنى أعلام، وأوصاف، وأسماء نبيه ﷺ أعلام، وأوصاف، وأسماء القرآن أعلام، وأوصاف، وكذلك أسماء القيامة أعلام وأوصاف؛ فهي أعلام من حيث دلالتها على ذات المسمى، وأوصاف من حيث اختصاص كل اسم منها بوصف يميزه عن غيره. فالطامة، والصاخة، والحاقة، والغاشية، والآزفة، كلها أسماء لمسمى واحد، لكن كل اسم منها يحمل دلالة خاصة؛ فالصاخة تصخ الآذان، والقارعة تقرر القلوب، والآزفة قريبة الوقوع، والطامة لأنها تطم كل هائلة سواها؛ أي تغمرها. وكل داهية دونها. ولذا سماها (الكبرى)، وما عظمه الله فلا ريب أنه عظيم.

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴾ (٣٥) : قيل أن هذا جوال لهذا في قوله ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ (٣٤)

﴿ أي حينئذ يتذكر الإنسان ما سعى. وقوله : ﴿ الْإِنْسَانُ ﴾ أي جنس الإنسان، من مؤمن وكافر، وقوله : ﴿ مَا سَعَى ﴾ أي في الحياة الدنيا، ما قدم، وما فرط منه. قال ﷺ : " كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا " رواه مسلم^(١) حينما يُبعث الإنسان يوم القيامة، يمر عليه شريط الحياة التي حياها ستين سنة،

أو سبعين سنة، أو تسعين سنة، أو أقل، أو أكثر، يتذكره كله، كما قال تعالى ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣]، وكما قال تعالى في سورة الفجر ﴿ يَوْمَئِذٍ يَنْذَكَرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ [الفجر: ٢٣] هذه الذكرى لا فائدة من ورائها، إلا إقامة الحجة .

(١) صحيح مسلم (223).

﴿وَبَرَزَتْ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾: ﴿٣٦﴾ ﴿وَبَرَزَتْ﴾ أي أظهرت، كما في الحديث الصحيح: "يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُحْرِقُونَهَا" رواه مسلم^(٢)، وهذا يدل على أنها خلق عظيم هائل، وأنه مشهد مخوف .

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾: ﴿٣٧﴾: ابتداء التقسيم ، ومعنى ﴿طَغَى﴾ أي تجاوز؛ لأن الطغيان معناه التجاوز، كما قال الله، ﷻ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] يعني لما تجاوز حده، والمقصود هنا أي تكبر، وتجر، وعصى، وكفر .

﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: ﴿٣٨﴾ ﴿وَأَثَرٌ﴾ بمعنى قَدَم، وفضل الحياة الدنيا على الآخرة، وذلك باتباع الشهوات، فلم يؤمن، ولم يستجب، وقال كما قال هؤلاء المنكرون للبعث: (أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر)، فنظرتهم هي النظرة الدنيوية المادية، التي ترى أن الذكي، والحاقد، هو الذي يعب من الشهوات عباً، ولا يلزم نفسه بشيء. وهذه الحياة الدنيوية هي حياة من يسمون بتعبير العصر (العلمانيين) نسبة إلى العالم، أي الدنيا، لا نسبة إلى العلم، كما يلفظها بعض الناس، بكسر العين . والترجمة الصحيحة لهذا المصطلح (الدنيويون)، بإزاء (الدينيين) أهل الدين. فهؤلاء لا يعينهم إلا متاع الحياة الدنيا، ولا ينظرون إلا بمنظور المادة، ولا يعينهم أمر الدين. فيصدق عليهم قول الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾: ﴿٣٧﴾ ﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: ﴿٣٨﴾ ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾: ﴿٣٩﴾ .

﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾: ﴿٣٩﴾: اسم من أسماء النار، وهي علم، ووصف؛ وسميت بالجحيم لتجحيمها، يعني لأنها تجحمت من شدة الإيقاد عليها، فهي سوداء مظلمة. ومعنى ﴿الْمَأْوَى﴾: يعني المرجع، والمآل .

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾: ﴿٤٠﴾: هذا هو القسم الثاني ﴿وَمَنْ﴾ بمعنى الذي، ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾: يعني خاف المقام بين يدي الله، ﷻ. فبين عينيه دوماً أنه سيقف بين يدي الله، قال النبي ﷺ "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ كَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجَمَانُ فَيَنْظُرُ أَيَمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ

^(٢) صحيح مسلم (2842).

بَشِقْ تَمَرَةً" متفق عليه^(٣). فالمؤمن يخاف من هذا المقام بين يدي الله. وقد أثمر هذا الخوف نهي النفس عن الهوى، والمقصود بالهوى ما تهواه النفس، أي تميل إليه، وغلب استعمال الهوى على الأمر المذموم، وإلا فقد يهوى الإنسان أمراً محموداً. فهذا الموفق، والنفس الله لها ثلاثة أحوال: تارة تكون مطمئنة، وتارة

تكون أمارة، وتارة تكون لوامة. فالمقصود بقوله: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ﴾ جنس النفس الأمارة، وهي التي

تأمر صاحبها بالسوء، كما قال ﷺ على لسان امرأة العزيز ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ

بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]. وعلى النقيض منها النفس مطمئنة، ذات

القلب مطمئن، قال ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) وَأَدْخِلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴿

[الفجر: ٢٧-٣٠] نفس ساكنة، خاضعة، راضية، رضية، رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، ليس لها نزعات، وتطلعات، وميولات، وهفوات، فهي تحب ما يحب الله، وتبغض ما يبغض الله، هاتان نفسان متقابلتان. وبين هاتين النفسين، نفس تترد جيئةً، وذهاباً، تارة تنزعها حالة النفس

الأمارة، وتارة تنزعها حالة النفس مطمئنة، وهي التي أقسم الله تعالى بها بقوله ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ

﴿١﴾ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (٢) [القيامة: ٣]. يعني التي تتلوم على صاحبها، والتلوم هو التلون؛ بمعنى أن

لها لوناً تارة ولوناً تارة أخرى، فهي لما . فنفسنا في الأعم الأغلب، نسأل الله أن يصلح أحوالنا، نفوس لوامة، فإن الإنسان غلب الإيمان، ووعظ نفسه، نزع إلى جانب النفس مطمئنة، وإن هو اتبع هواه،

وتمنى على الله الأماني، مال إلى النفس الأمارة، فلهذا قال ﷺ: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾، وهذا يحمل

معنى المجاهدة؛ لأن النفس تحتاج إلى مجاهدة، لا بد من فقه النفس، يجب أن تعلم أن نفسك التي بين

جنبك، قد أودعها الله الخير والشر، قال سبحانه ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) ﴿

[الشمس: ٧-٨] كما سيأتي في تفسيرها.

﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٩): الجنة لا يدخلها إلا نفس طيبة، قد تخلصت وتنقت من شوائبها،

وعوالمها الرديئة. والمأوى هو المرجع والمصير.

(٣) صحيح البخاري (7074)، صحيح مسلم (1016).

هذا تمام التقسيم وجواب عن قوله ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ (٣٤) يعني فإذا جاءت الطامة الكبرى انقسم الناس إلى فريقين، فريق مآله إلى الجنة وفريق مآله إلى النار .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (٤٤) يعني متى وقت وقوعها، وحصولها، كأنه مأخوذ من رسو السفينة، فالسفينة تمخر عباب البحر، ثم ترسو على الشاطئ .

(فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا) : أي في أي شيء أنت من ذكرها، كأنه يقول: ليس تعين أوانها من شأنك ، كما قال ﷺ لجبريل عليه السلام ، لما سأله عن الساعة قال " ما المسؤول عنها بأعلم من السائل " متفق عليه^(٤) ، ولما قال له أعرابي : متى الساعة ؟ قال " ما أعددت لها ؟ " متفق عليه^(٥) ، فأمر الساعة قد أخفاه الله ﷻ ، كما قال في آية الأعراف ﴿لَا يَجْلِيهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْنَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ

حَفِيٌّ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ، فالساعة قد أخفاه الله ، و كل ما تسمعون من دعاوى، ومزاعم، أن انتهاء

العالم سيقع عام كذا، وكذا، فهو رجم بالغيب، يقول الله ﷻ ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٦٥) [النمل: ٦٥] .

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلًا﴾ (٤٤) أي أن موعدها، علمه عند ربك، فهو مما اختص الله تعالى بعلمه، كما أخبر عن ذلك في آخر سورة لقمان فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] .

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ (٤٥) : هذه مهمتك التي ينتفع بها غيرك؛ ليس الإعلان عن موعد الساعة، وإنما النذارة من قرب وقوعها ﴿مَنْ يَخْشَاهَا﴾ يعني من يخشى الساعة، هو الذي تحصل له النذارة ، والنذارة: هي الإخبار بالأمر المخوف .

﴿كَانَ يَوْمٌ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (٤٦) : يعني عشية يوم، أو ضحوته، والعشية هي الآخِر، والضحى أوله ، كما أخبر سبحانه وتعالى في موضع آخر عنهم، فقال ﴿يَخُنُّ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لِّبْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤] ، سبحانه الله ! تمضي كل هذه السنين والعقود، فتبلى لفاظر يوم القيامة، كأنها هي عشية أو ضحاها، فيالها من موعظة بليغة! .

(٤) صحيح البخاري (50)، صحيح مسلم (8).

(٥) صحيح البخاري (6167)، صحيح مسلم (2639).

الفوائد المستنبطة:

- الفائدة الأولى: أن أسماء القيامة أعلام وأوصاف .
- الفائدة الثانية: هول القيامة الكبرى؛ لأن الله سماها الطامة .
- الفائدة الثالثة: ذكر الإنسان لسعيه بعد البعث .
- الفائدة الرابعة: إثبات الجنة والنار.
- الفائدة الخامسة: أن الجزاء من جنس العمل .
- الفائدة السادسة: إثبات أفعال العباد، وترتب الثواب والعقاب عليها، مما يدل على أن للعبد فعل، ومشئته، واختيار يؤاخذ عليه، ويثاب عليه .
- الفائدة السابعة: كمال عدل الله ﷻ.
- الفائدة الثامنة: شؤم الطغيان، وإيثار الشهوات.
- الفائدة التاسعة: فضل الخوف من الله، ومجاهدة النفس.
- الفائدة العاشرة: تشوف الناس للعلم بالساعة.
- الفائدة الحادية عشرة: اختصاص الله تعالى بعلم الساعة .
- الفائدة الثانية عشرة: أن العبرة بالإعداد لها .
- الفائدة الثالثة عشرة: حقارة أمر الدنيا في الآخرة.